تختلف المصادر في تحديد تاريخ صدور أول ألبوم لمصطفى الكرد. وبينما يرى متابعو الحركة الفنية الفلسطينية أن الألبوم ظهر عام 1974، يرى آخرون أن الألبوم صدر عام 1976، وجاء بالتعاون مع فرقة «بلالين» المسرحية التي أسسها فرانسوا أبو سالم

مصطفى الكرد
فوانيس في القدس

هيثم أبوزيد

خلال خمسين عاماً، استطاع الموسيقي المقدسي مصطفى الكرد (1945 - 2024) أن يفسح لنفسه موقعاً ريادياً بين المغنين والملحنين الفلسطينيين، بل بين تلك الثلة التي جعلت فنها كله في خدمة قضية التحرر من الاحتلال. مسيرة الرجل الفنية، منذ أواخر الستينيات وحتى رحيله في فبراير/شباط الماضي، تؤكد أنه قرر مبكراً أن يقصر عطاءه الموسيقي والغنائي والمسرحي على التعريف بقضية الشعب الفلسطيني، والحض على مقاومة المحتل، وأن يكون إبداعه المتواصل في تطوير «الغناء المقاوم» لا غير. فالكلمة واللحن والعزف والغناء والفرق والمسارح والمؤسسات لا تشكل عند الكرد هدفاً مطلوباً لذاته، ولكنها مجرد وسائل، وأسلحة معنوية، تضع قضية التحرر غاية نهائية، لتصبح المقاومة أكبر دوافع الإبداع، ولتصير قضية الوطن السليب محور التطوير الموسيقي، والبوصلة الموجهة التي يهتدي بها العمل الغنائي. تلك قواعد حاكمة ثابتة التزمها الرجل، لا تتغير بتغير الظرف السياسي أو المكاني، ولا تتبدل مع تبدل الأشخاص أو المؤسسات. مصطفى الكرد هو مصطفى الكرد، في فلسطين أو خارجها، في لبنان أو في ألمانيا، في عمل فردي أو ضمن فريق. فلسطين وشعبها وجرحها وثورتها هي الأغنية وهي اللحن. لعل أهم ما يلفت الباحث في رحلة الكرد الفنية ذلك الاهتمام الكبير بالبناء، سواء بناء الفرق أو المؤسسات. يتمتع الرجل بقدرات قيادية، تدفع به دائما إلى الصدارة، وإلى تكوين الفرق الموسيقية أو المسرحية. في عام 1970، شارك في تأسيس معهد القدس للفنون والمسرح. وفي عام 1976، كان مسؤولاً عن الأنشطة الحرة في جامعة بيت لحم، وعام 1986 أسس قسم الموسيقى في مسرح الحكواتي، وعام 1992 عمل مديراً للدائرة الموسيقيّة في مجلس الفن الأعلى في القدس. وبعد تأسيس السلطة الفلسطينية عام 1994، شغل منصب مدير دائرة الموسيقى في هيئة الإذاعة والتلفزيون التابعة للسلطة، كما ظل مديراً لمركز القدس للموسيقى العربيّة حتى رحيله. حتى وهو في المنفى، شارك في تأسيس فرقة نوح إبراهيم الموسيقية في بيروت.

تختلف المصادر في تحديد تاريخ صدور أول ألبوم غنائي لمصطفى الكرد، وبينما يرى كثير من متابعي الحركة الفنية في فلسطين أن الألبوم ظهر عام 1974، من خلال مكتب صلاح الدين للنشر، الذي أسسه في القدس إلياس نصر الله وداود خوري وتوفيق أبو رحمة، يرى آخرون أن الألبوم صدر عام 1976. جاء هذا العمل المفصلي بالتعاون مع فرقة «بلالين» المسرحية التي أسسها فرانسوا أبو سالم في عام 1970، وكانت لها الريادة المسرحية في عموم الضفة الغربية. كتب الكرد بنفسه كلمات أغنيات الألبوم، باستثناء الأغنية الأولى «الجلاد» التي وضع كلماتها الشاعر والمناضل كمال ناصر، الذي استشهد في بيروت عام 1973. تقول: «لن نبكي.. لقد أخرسنا الدموع.. وانطوت الضلوع على الأسى.. فخرا وكبرا.. من سار في درب العلا.. لا بد أن يموت.. لأننا في موتنا.. نستلهم الحياة.. ونخلق الحياة.. نحقق الحياة.. في العدم». لحن الكرد هذا الاستهلال بنغم مرسل، ومع المقطع التالي جاء الإيقاع الحماسي الصاخب يتعانق مع الكلمات المتفجرة: «مزق وحطم أضلعي.. فلم يزل بأضلعي قلب نبي. واضرب فهذا عنقي.. على الأسى لم يطرق». ثم توالت الأغنيات التي كتبها الكرد، مع نفس يساري واضح، كما في أغنية «الأرض» التي تقول: «راح يجي يوم وتكون الشمس حراقة ويصفر القمح.. والمنجل بحده اللامع.. يحملو الحصاد البارع.. والأمل يصبح حقيقة.. من فتاة زي الرجال.. الأمل يصبح حقيقة.. من سواعد العمال.. الأمل يصبح حقيقة.. من فلاح يزرع الجبال». ربما يشعر المستمع بأن الكرد لا يملك قدرات صوتية استثنائية، وربما يتعمد الرجل أن يقدم غناء لا يصرف الذهن عن المعنى، ولا ينشغل معه المستمع عن الهدف الأول والأخير وهو فلسطين. لعل هذا يمثل أحد أهم الاختلافات بين أداء الكرد وأداء الشيخ إمام عيسى، الذي لا يغيب الطرب عن غنائه لحظة، حتى لو كانت الكلمات تتفجر حماساً وثورية.

صدر الألبوم بعنوان «أرض وطني»، وكان سبباً في اعتقال سلطات الاحتلال المغني. خضع لتحقيق تواصل 28 يوماً، ثم صدر قرار باعتقاله إدارياً مدة ستة أشهر. ثم صدر قرار بإبعاد الرجل ونفيه إلى خارج فلسطين، ليعيش بين لبنان وألمانيا عشر سنوات، قبل أن يُسمح له بالعودة عام 1985. في سنوات المنفى، تحول مصطفى الكرد إلى كرة لهب فنية، تكثف نشاطه الموسيقي بدرجة مذهلة. في بيروت، أنتج أسطوانته «نوح إبراهيم»، تحية إلى شاعر ثورة 1936، وتضمنت أغانيَ من كلمات محمود درويش، وتوفيق زياد، وخليل توما، وسميح القاسم. ولما استقر في ألمانيا، تكثف نشاطه، ولا سيما في احتفالات الطلاب وقوى اليسار، وشارك في عدد كبير من الفعاليات، منها: مهرجان برلين للأغنية السياسية، ومهرجان الموسيقى الشعبية في فانكوفر، ومهرجان رودولشتات الشعبي. كما كان ضيفاً مشاركاً في كلية العلوم الموسيقية في جامعة برلين الحرة. سجل في أوروبا عدة أغنيات، من بينها «بدون جواز سفر» عام 1979 في بروكسل، كما غنى مع عدد من أبرز الموسيقيين والمغنين السياسيين، مثل: الموسيقار اليوناني ميكيس ثيودوراكيس، وفرقة إينتي إيليماني التشيلية، والمغنية والناشطة الجنوب-أفريقية ميريام ماكيبا، والبرتغالي خوسيه أفونسو، والأميركي بيت سيغر. ولم يتوقف عن الإصدارات الموسيقية، ومنها: «فلسطين حبي» عام 1977، و«أحلم بالغد» و«صوت من فلسطين» وكلاهما عام 1980.

مع اندلاع انتفاضة الحجارة عام 1987، أصدر الكرد مجموعة غنائية جديدة بعنوان «أطفال الانتفاضة». وعام 1990 أصدر مجموعة «القدس» وكل أغنياتها مخصصة للمدينة. وعام 1992 أصدر مجموعة «أطفال من فلسطين». في سويسرا، وتحديداً عام 1993، أصدر مجموعة أغنيات بعنوان «فوانيس»، ثم أصدر ألبوم «المداح» عام 2009. وغنى الكرد لأعلام الشعراء الفلسطينيين، ولحن مختارات شعرية لمحمود درويش، وتوفيق زياد، وفدوى طوقان، وسميح القاسم، وخليل توما، وراشد حسين. ووضع الموسيقى التصويرية لعدد من الأفلام والمسرحيات، وكلها ذات بعد سياسي. ولد مصطفى الكرد عام 1945، في البلدة القديمة بالقدس، وبعد النكبة، رحلت أسرته إلى أريحا، ثم عادت إلى القدس أوائل الخمسينيات. تفتحت آذانه على صوت أبيه يجود القرآن بعد صلاة الفجر. وكان لحلقات الذكر والإنشاد الصوفي المنتشرة في زوايا المدينة أثرها الكبير في نفسه. جذبه فن التجويد من القراء في المسجد الأقصى. في السادسة من عمره، ألحقه أبوه بالمدرسة العمرية، فتلقى فيها مبادئ القراءة والكتابة وأحكام التجويد، وفيها أيضا اكتشف المعلمون موهبته الغنائية وصوته الجميل في التجويد، فشجعوه بكلمات الثناء. لكن رحيل أبيه عام 1959 اضطره إلى ترك المدرسة والالتحاق بورشة لتعلم «الحدادة»، فأصبح الحداد الفنان. يغني أثناء العمل، ويجعل من المطارق آلات إيقاع، إلى أن ضاق به صاحب العمل وطرده، فغادر من دون عودة، وقرر أن تكون الموسيقى هي هوايته وعمله.

بالطبع، فإن أعمال مصطفى الكرد لم تنل مستوى واحداً من الشهرة، لكن بعضها دوى في أرجاء فلسطين. في القدس والضفة وغزة، وفي مخيمات اللاجئين في الأردن وسورية ولبنان. وكانت أشهر تلك العبارات تلك التي يقول فيها: «هات السكة وهات المنجل.. إوعى في يوم عن أرضك ترحل». كان لتلك الجملة القصيرة أثر يفوق أثر الخطب المطولة، والكلمات المنسقة. أحب مصطفى الكرد مدينة القدس، بأبنيتها وحجارتها وشوارعها التاريخية، ارتبط بالبلدة القديمة ارتباطاً وثيقاً، وتألم كثيراً لابتعاده عنها في سنوات المنفى، وخصص أسطوانته المعنونة بـ«المداح» للتغني بذكرياته في المدينة وحاراتها وأحيائها.

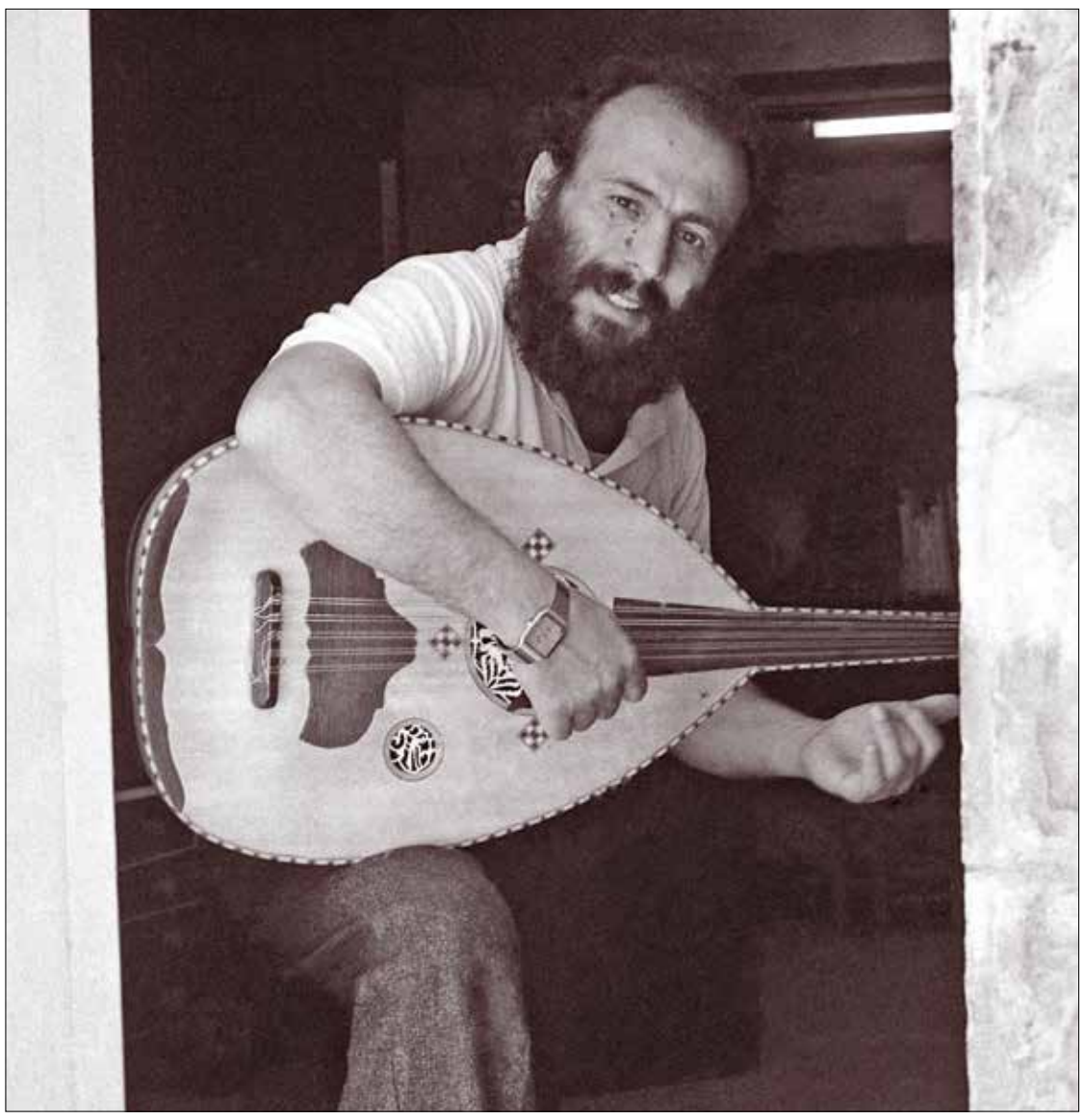

ساهم في تأسيس عدد من الفرق الغنائية والمسرحية
(أرشيف المتحف الفلسطيني الرقمي)

> انجذب الكرد لفن التجويد من القراء في المسجد الأقصى
>
> خصص أسطوانته «المداح» للتغني بذكرياته في مدينته القدس

بيلي آيليش... ذات جميلة وزرقاء

علي موره لي

لا تكفّ المغنية الأميركية الشابة بيلي آيليش عن إبراز شخصيتها الفنية من خلال سمة التحدي الدؤوب والمتواصل لكل ما هو سائد. بحكم نجوميتها وشعبيتها شديدة الاتساع بين أبناء جيلها، إنما يؤدي تحديها هذا إلى خلق سائدٍ جديد بختمها الفريد، لن يؤثر فقط في المشهد الموسيقي والغنائي، وإنما أيضاً في المسلك بين أقرانها من فنانين وموسيقيين. مثلاً، يسود في الآونة الأخيرة بين معظم المشتغلين بموسيقى البوب توجهٌ إلى طرح أغانٍ منفردة (Single)، قبل أن تُجمع ضمن ألبوم واحد، وذلك لتأثرهم بتغيّر وسائل الإصدار من أقراص أسطوانات، وأشرطة كاسيت ثم أقراص سي دي، إلى ظهور منصّات الإنترنت، التي شجّعت بحكم نموذجها الاستهلاكي على تصدّر المنتجات السمعية والبصرية قصيرة المدة الزمنية، كالأغنية الواحدة، على حساب الألبوم ذي الثماني إلى 12 أغنية. أما بيلي آيليش، فنراها من جديد تجدّف عكس تيار أصبح سائداً، متمسّكة بمبدأ سيادة الألبوم، ليس لكونه عبوةً تسويقية وُلدت تماشياً مع وسائل إنتاج واستماع موسيقية لم تعد شائعة، بل بوصفه فرصة لأجل بناء سردية تُشكّل لها التراكات فصولاً ومحطات. يتجلّى نهجها من خلال إصدارها ألبوماً جديداً الأسبوع الماضي بعنوان Hit Me Soft and Hard، بالتعاون مع أخيها المنتج الموسيقي فينياس أوكونيل. ففي مقابلة تعود إلى ربيع 2023 أجرتها معها صحيفة رولينغ ستونز المختصة بموسيقى البوب، بقصد تقفّي سير عملية التسجيل والإنتاج، صرّحت آيليش بأنها لا تحبّذ فكرة طرح أغاني ألبومها فرادى، معللة ذلك بأنها «لا تحب أن تُخرج الأشياء عن سياقها»، في تلميح منها إلى وجود إطارٍ يضم تراكات الألبوم العشرة وفكرة واحدة تجمع بينها، إذ شبّهته بعائلة، وأنها بذلك «لا تريد لأحد الأبناء أن يقبع في الغرفة وحيداً». تُسمع الأغنية الأولى بعنوان Skinny محمولة على عناقيد أنغام تنساب من أوتار غيتار كهربائي، تحاكي في طلاوتها حركة الماء الموجيّة في جوف حوضٍ عميق للسباحة، يغوص صوت آيليش فيه برقّة أثيرية. بعد همهمتين ترافقان الغيتار، تبوح بأنها «وقعت للمرة الأولى بحب أحدهم وهو صديق؛ لعلها علامة جيدة»، وأن الناس أخذوا يلاحظون بأنها «صارت نحيلة». لكنها تُؤكّد أن ذاتها الأصلية ما زالت على حالها، لا بل إن ذاتها الحقيقية أخذت بالظهور، نتيجةَ الوقوع بالحب، وأن تلك الذات جميلة. تحافظ الأغنية على ذات الدفق والحساسية من غير انقطاع، وفي نفس الوقت، يحدث تصعيدٌ من حين لآخر، سواءً باشتداد نبرة الحنجرة أثناء الغناء أو إضافة رشقات إيقاعية هنا، وتوزيعات وترية هناك. تدلّ النقلة السلسة بين التراك والذي يليه، المعنون Lunch على رؤية الفنانة للألبوم كخيط سرديٍّ واحد، ليس شكلياً فقط، وإنما موضوعياً أيضاً.

فالنحالة والهزال اللذان ألمّا بها جرّاء الحب في الأغنية الأولى، سيُفضيان إلى جوع ونهم شديدين، تُعبّر عنهما كلمات الأغنية التي تليها. إلا أن الجوع ليس إلى الطعام، وإنما إلى مزيد من الحب، والشهوة ليست للمأكول وإنما للمحبوب، إذ تقول: «باستطاعتي أكل تلك الفتاة على الغداء، ها هي ترقص على لساني، طعمها يوحي بأنها هي المنشودة». ولأجل تجسيد شهوة الغرام، تتبع الأغنية شكلاً إيقاعيّاً ساخناً قريباً من موسيقى الروك، إنما بالأصوات الإلكترونية. يتضح من مسار التراكات أن قصة حب هي الخيط السردي الجامع للألبوم، وأن الأغاني ما هي إلا فصول تلك القصة، بشاعريّتها وحماستها، بصفوها وعنفوانها، بوجعها وبهجتها. لجهة الأشعار تُشكّل أغنية The Greatest، سادسة الألبوم، الذروة الحسّية لخطاب العشق. تناقضها الموسيقي في نزوعها إلى الهدوء ونزولها في مستوى الحدة الدرامية، اكتفاءً بالرقة الرومانسية.

تتغنّى الكلمات بالتفاني لأجل المحبوب وبذل كل ما أمكن في سبيل إرضائه، إذ من شأن ذلك التفاني وذلك البذل أن يسموا بذات العاشق لا المعشوق، ويجعلا منه الأعظم، ليس فقط بين طرفي العلاقة الغرامية وإنما بين كل الناس. على غرار التراك الأول، تتم مرافقة الكلمات بنقرٍ لطيف على غيتار أكوستي في البدء، لن يتم التصعيد سوى باختناق صوت الغناء ودخول بعض المؤثرات الطفيفة المصنوعة من أصداءٍ لآيليش وأصوات أخرى إلكترونية، إلى حين الكوبليه ما قبل الأخير، وإثر المرور بعبارة «يا رجل، أنا الأعظم»، حينها تنفجر الموسيقى وتثور، لتلج أجواء الهارد روك العاصفة في ذروة غير متوقعة، وإن احتفظت بإيقاع بطيء رصين، إلى حين عودتها عند الختام إلى رقّة تتأرجح على حافة الانكسار بين الحنجرة والغيتار. يغلب التناقض أيضاً بين الشكل والمضمون على الأغنية العاشرة والأخيرة، التي تحمل عنوان Blue. إلا أن الزرقة هنا لا تكتفي بالدلالة على اللون، وإنما تُشير إلى الحزن، وفق التعبير المأخوذ عن الثقافة الأفروأميركية، إذ عنها انبثق اللون الحزين المسمى «بلوز» في موسيقى الجاز.

> يصدر ألبوم آيليش دفعةً واحدة وليس كأغانٍ منفردة متفرقة

أثناء عرض قدمت فيه ألبومها الجديد (Getty)